تقديم كتاب حامد الزغل "جيل الثورة : ذكريات مناضل" [1]

عبد الجليل بوقرة
المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية
جامعة منوبة

ثلاثينات القرن العشرين والانقلاب الهيكلي

إذا اعتمدنا المقاربة البنيوية في قراءتنا لتاريخ تونس الحديث والمعاصر، سنجد بالتأكيد أن الانقلاب الهيكلي والجذري، الذي تتواصل تداعياته إلى زمننا الراهن، هو ما حصل بين 1932 و1942 : عشر سنوات غيّرت الكثير، بل نكاد نجزم بأنّها غيّرت كلّ شئ وانتقلت بتونس من مرحلة إلى أخرى مختلفة. في تلك العشرية عرفت تونس أزمة اقتصادية عميقة طالت الاقتصاد العصري، الذي ركّزه نظام الحماية الفرنسي، والاقتصاد التقليدي الموروث، وفي حين لقي الاقتصاد العصري العناية والرعاية والمعالجة الفورية لأزمته من قبل السلط الاستعمارية (إدارة ومؤسسات مالية) فإن الاقتصاد التّقليدي ترك إلى مصيره في مواجهة أزمة خانقة تتجاوز حجمه وما توفّر له من إمكانيات الحماية الذاتية، ممّا أدّى إلى احتضاره وتراجعه المذهل والسريع. وانعكس ذلك التقهقر على بنية المجتمع التونسي وتوازناته، حيث «اختفت» طبقات اجتماعية وتراجع نفوذ أخرى دون أن تختفي مقابل ظهور طبقات جديدة، أي شهد المجتمع التونسي إعادة ترتيب شاملة. كما عرفت تونس في هذه العشرية انفتاحا واسعا على العالم الخارجي بحلول مئات الآلاف من الجنود الأجانب، وخاصة من أوروبا،

---

1) حامد الزغل، **جيل الثورة : ذكريات مناضل**، سيراس للنشر، تونس، 2001، 627 صفحة.

بتونس واختلاطهم بالأهالي، في المدن والأرياف، على امتداد نصف سنة أثناء الحرب العالمية الثانية، مع ما أفرزه ذلك الاختلاط من اطلاع على لغات جديدة وعادات وسلوكيات مختلفة.

لقد وضعت تلك الأحداث الكبرى حدّا لعصر "قديم" وتمخّضت عنها ولادة تونس أخرى مغايرة في نمط عيشها وفي سلوك سكانها وفي ذهنيتهم، إنها أحداث أعلنت عن بداية نهاية المجتمع القبلي التقليدي وعن ولادة المجتمع المدني التونسي بنقاباته وجمعياته وصحافته...

في خضم هذا التحول الهائل ولد "جيل الثورة" (جيل حامد الزغل) ثم بدأ يشقّ طريقه للتموقع ضمن المشهد الاجتماعي والسياسي والجمعياتي الجديد، إثر الحرب العالمية الثانية.

الخطوات الأولى لـــ "جيل الثورة"

"جيل الثورة" هو ذلك الجيل الذي ساهم بفعالية في "الثورة التونسية" التي اندلعت سنة 1952 ضدّ النظام الاستعماري وتوفّقت إثرها تونس، بعد أربع سنوات، إلى وضع حد لنظام الحماية الفرنسي المفروض طيلة 75 سنة. شهد هذا الجيل، وهو يخطو خطواته الأولى، على نشأة كمّ هائل من الجمعيات والمنظمات وانتشارها بأغلب الجهات : كالشبيبة المدرسية والمنظمات الكشفية والنقابات العمالية والمنظمات الشبابية والنسائية والجمعيات الرياضية والنوادي والصحف الثقافية والفرق المسرحية والموسيقية... إنها ولادة مجتمع جديد بكل ما تعنيه الولادة من دلالات وتداعيات. جعلت هذه الولادة من مذكرات حامد الزغل الواردة في كتابه "**جيل الثورة**" شهادة/ وثيقة تاريخية ثريّة ومتنوّعة حيث لم يقتصر فيها صاحبها على تنشيط ذاكرته السياسية بل نجد أنفسنا، ونحن نغوص في صفحات مذكراته، إزاء سيرة جيل بكل تفاصيلها من المعيش اليومي إلى الانخراط في الشأن العام والأفكار السائدة حينها والأهم من كل ذلك تتشكّل أمامنا، من خلال سيرة ذلك الجيل، صورة متكاملة لتونس إثر الحرب العالمية الثانية بساحاتها وشوارعها وأزقتها ومقاهيها وأغاني مطربيها ومطرباتها ومسارحها وقصص الحب والصداقات وبرامج التعليم والحفلات المدرسية والكشافة والنقابات العمالية واتحاد الطلبة... معلومات كم هي مفيدة للمؤرخين

الذين يفنون أعمارهم في البحث والمقارنة والتحقيق والمراجعة للإجابة عن سؤال واحد : "**كيف كان القدامى يعيشون ؟**" مع ما يتفرّع عنه من أسئلة تكميلية من نوع : "**ماذا يأكلون ؟ ماذا يلبسون ؟ كيف يشيّدون بيوتهم ومدنهم ؟ كيف يعبّرون عن أفراحهم وأحزانهم وعواطفهم؟...**".

في كتاب "**جيل الثورة**" سعى حامد الزغل، بجرأة حينا وبتردد واحتشام حينا آخر، إلى رسم ملامح المشهد العام لمدينة صفاقس بدرجة أولى، فهي مدينته التي أحبّها وتعلّق بها، ثمّ مدينة تونس، أين قضّى جزءا كبيرا من حياته مناضلا ثم مسؤولا بدولة الاستقلال، وأخيرا باريس التي عاش فيها طالبا. إنها المحطات الثلاث الكبرى في حياة حامد الزغل، معها ومن خلالها تشكّلت شخصيته بالصورة التي أصبح عليها عندما تولّى فيما بعد مسؤوليات عليا بدولة الاستقلال صحبة "جيل الثورة" الذين تحدث بإسهاب عن علاقاته بهم وعن دورهم في النضال الوطني سواء بالكشافة أو بالشبيبة المدرسية واتحاد الطلبة أو بالحزب الحر الدستوري الجديد، وهنا نكتشف جوانب من سيرة منصور معلى وعبد المجيد شاكر ومحمد التريكي من صفاقس والهادي البكوش وحامد القروي وسليّم عمار ومحمد بلحاج عمر من سوسة وتوفيق بكار ومحمد حرمل وزكرياء بن مصطفى من تونس...

التاريخ بين الذاتي والموضوعي في روايات السياسيين

الانطباع الأول الذي يقفز إلى ذهن قارئ مذكرات حامد الزغل هو ما تميّز به الرّاوي من جرأة في استحضار الأحداث وروايتها : ففي تونس لم يبدأ نشر مذكرات السياسيين للعموم إلاّ بعد 7 نوفمبر 1987 إثر إزاحة الحبيب بورقيبة من الحكم. وقبل هذا التاريخ عندما كنّا، كمؤرّخين، نسأل السّاسة عن سبب امتناعهم عن نشر مذكراتهم واقتصارهم على سردها شفويا في مجالسهم الخاصّة، كان الجواب الذي يتكرّر : إنّ بورقيبة لا يرغب في أن يتحدّث أحد غيره عن تاريخ تونس المعاصر. فكنّا ننتظر ساعة نهاية حكم بورقيبة كي نطّلع على مذكّرات سياسيين مغايرة لما سمعناه من بورقيبة ومن "مؤرّخيه"... وبداية من ديسمبر 1987 تواتر صدور مذكّرات، طال انتظارنا لها، مثل مذكرات سليمان بن سليمان وحمادي بن سالم وعزالدين عزوز والحبيب المولهي

والحبيب عاشور ورشيد إدريس ومحمد النافع ومراسلات الباهي لدغم... (2) إضافة إلى بعض الحوارات الصحفية مع بعض الشخصيات الوطنية ونشرتها بعض الجرائد والمجلات، فالتهمناها كلّها ولكن لم نجد فيها ما يشبع نهمنا في معرفة "**كيف كان السابقون يعيشون**" لأنّ تلك المذكرات اقتصرت على تصفية حسابات سياسية مع خصوم الأمس وإبراز خصال الرّواة الذاتية (وإن لم يستطع حامد الزغل نفسه التخلّص كلّيا من تلك الظاهرة عند سرده لمذكراته)، لقد كانت نيّة أولئك الرواة واضحة في إبراز أدوارهم على حساب الآخرين، بل وتضخيمها أحيانا، دون التدليل على تلك الأدوار بمستندات ومؤيّدات. كما إنهم تجاهلوا تماما الحديث عن الحياة اليومية في ثرائها وعمقها أثناء الفترة التي جدّثونا عنها، وبقيت كل تلك المذكرات بعيدة كل البعد عن انتظارات المؤرّخين في تقديم رواية مغايرة لرواية بورقيبة، بل إنها لم ترتق إلى مستوى روايته من ناحية الشكل أو المضمون...

الكثير من التونسيين لا ينسى تلك المحاضرات التي قدّمها بورقيبة في نوفمبر 1973 بمعهد الصحافة وعلوم الأخبار وهو يتحدّث، دون حرج، عن إصابة جهازه التناسلي وخصيته الوحيدة وعن الهاجس الذي كان يؤرّقه عندما كان يشكّ في أبوّته لابنه الوحيد، الحبيب الابن... وحديثه عن حبّه لوسيلة بن

---

2) انظر مثلا :

- الطاهر بلخوجة، **الحبيب بورقيبة، سيرة زعيم**، تونس، 1999،
- محمد الحبيب المولهي، **الوطن والصمود**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1991،
- ACHOUR Habib, **Ma vie politique et syndicale, ENTHOUSIASMES ET DECEPTIONS, 1944- 1981**, Alif ed. Tunis, 1989,
- AZZOUZ Azzedine, **L'HISTOIRE NE PARDONNE PAS, Tunisie : 1938- 1969,** L'Hamattan/Dar Ashraf Editions, Tunis, 1988,
- Ben SALEM Mohammed, **L'ANTICHAMBRE DE L'INDEPENDENCE, 1947-1957**, Cérès Productions, Tunis, 1988,
- Ben SLIMAN Slimen, **SOUVENIRS POLITIQUES**, Cérès Productions, Tunis, 1989,
- DRISS Rachid, **Reflets d'un combat**, Pub. institut sup. d'Histoire du Mouvement National, Tunis, 1996,
- ENNAFAA Mohammed, **Il était une fois... un jeune révolté**, Publisud/Maghreb Diffusion, Tunis, 1997,
- LADGHAM Bahi, CORRESPONDANCE, 1952- 1955, Les années décisives, Cérès Productions, Tunis, 1990.

عمار ومروره أمام بيتها ليلا وترديده لبيت من الشعر العربي القديم : "**أمرّ على الدّيار ديار ليلى**"...

استمع جيلنا إلى تلك المحاضرات ونحن لا نزال تلاميذ في فترة انتشرت فيها بعديد المدن التونسية ظاهرة الاحتجاج التلمذي والطلابي وأخذت أحيانا شكل إضرابات ومظاهرات بالشوارع وما يتبعها من اعتقالات وتجنيد ومحاكمات للتلاميذ والطلبة، ورغم ذلك شدّتنا محاضرات بورقيبة إليها وصرنا لا نتخلّف عن متابعة أيّ حلقة منها رغم عدم اقتناعنا كلّيا بروايته لتاريخ الحركة الوطنية... لكنّ طريقة بورقيبة في تقديم الرواية هي ما أبهرنا واهتمامه بالتفاصيل وكان اقتصاره على الأحداث السياسية في التاريخ هو ما رسخ في ذاكرتنا، ذلك ما افتقدناه في مذكرات حمادي بن سالم والحبيب عاشور وعزالدين عزوز مثلا...

حـــــامد الزغل الجــــريء

اهتمّ حامد الزغل كثيرا بتفاصيل مهمّة ومثيرة من الحياة اليومية، بمدينتي صفاقس وتونس، بل إنّه لم يجد حرجا في الحديث عن المواخير بهاتين المدينتين وحتى بباريس... وقد حدّثنا بجرأة لم نعهدها لدى رواة التاريخ من السياسيين بتونس عن قصّة حب عذري ومستحيلة عاشها مع فتاة فرنسية وهو ما يحيلنا على قصّة الحب بين بورقيبة، وهو رجل متزوج وأب، ووسيلة بن عمار، وهي أيضا متزوّجة، وهنا يجدر بنا التوقّف للبحث فيما يجمع حامد الزغل ببورقيبة حتى تتشابه طريقتهما في سرد التاريخ وهما من جيلين مختلفين، ويمكن الوقوف عند نقطتي التقاء بينهما :

- **الأولى** : التأثّر الواضح والصريح للزّغل، مثل أغلب أبناء جيله، ببورقيبة الذي بقي، بالنسبة إلى حامد الزغل، "المجاهد الأكبر" و"الزعيم الأوحد"، يستحق بجدارة، ودون منازع، كل تلك الألقاب... إنّها حقيقة مؤكّدة، بالنسبة لحامد الزغل، دافع عنها في مذكّراته دون تملّق...

- **الثانية** : ميل بورقيبة، كما الزغل، إلى المسرح والشعر: فبورقيبة مارس المسرح وصعد على خشبته كممثّل مع الفنانة اليهودية التونسية الشهيرة حبيبة مسيكة، وكان يحبّ المسرح كثيرا مثل الزغل الذي مثّل بدوره واقتبس

بعض النصوص المسرحية في صفاقس أيّام الفترة التلمذية... كما كان بورقيبة معجبا بأشعار الفرنسي فكتور هوغو Victor HUGO وخاصّة قصيدته التي عبّر من خلالها عن نقمته على نابليون الثالث وتحديدا ذلك البيت الذي يقول فيه : **"وإذا لم يبق سوى شخص واحد سأكون هو" Et s'il n'en reste qu'un, je serais celui là**، وكان بورقيبة معجبا أيضا بقصيـــدة "موت الذئب" للشاعر الفرنسي ألفريد دي فيني Alfred De Vigny، وهي نفس الأشعار ونفس الشعراء الذين عبّر الزغل عن إعجابه بهم في مذكّراته... فهل كان الميل إلى الأدب والفنون هو الذي يميّز أسلوب بعض السياسيين في سرد روايتهم للتاريخ ؟ أم هل كان تأثّر حامد الزغل بشخصية "الزعيم" وصل إلى حد التماهي مع أسلوبه في كتابة التاريخ ؟

إنّ الجرأة التي ميّزت أسلوب الزغل في كشف مذكّراته والتي ميّزته عن غيره من السياسيين التونسيين الذين نشروا مذكّراتهم، لا يصل بها الكاتب إلى حدّها الأقصى: فهو يعيش قصّة حب مع فتاة فرنسية لكنّه يظلّ حبّا عذريا، ويدعو طالبة فرنسية إلى غرفته لكنه يكتفي، حسب روايته، بالإستماع إليها وهي تغنّي أغان فرنسية شائعة آنذاك، ويرتاد أصدقاؤه المواخير الباريسية في حين يكتفي هو بالمشاهدة من بعيد... إنّه تردّد مفهوم ويسوّغه غياب تقاليد الاعتراف Confession في حضارتنا وثقافتنا العربية الإسلامية... فعندما تحدث بورقيبة، في محاضراته المذكورة أعلاه، عن خصيته الوحيدة اشمأزّ أغلب التونسيين وقالوا "إن بورقيبة جنّ" ونفس الشئ قيل عن الكاتب المصري نجيب محفوظ، صاحب نوبل للآداب، عندما تحدّث بجرأة وبصراحة نادرتين عن تفاصيل مثيرة من حياته الخاصة فقيل عنه إنه «تخريف رجل عجوز».

لا بديل عن صفاقس

ما يلفت انتباه قارئ مذكرات حامد الزغل هو ذلك التعلق الشديد بمدينة صفاقس : فعندما عيّن للتّدريس بمدينة سوسة سنة 1955-1956 حاول التأقلم والاندماج في أجواء تلك المدينة، فاتّصل بالجامعة الدستورية بها وبرئيسها، الذي لم يكن سوى أستاذه أحمد نورالدين، لكن قيل له "لا تنس إنّك تظلّ دائما زرن بهذه المدينة" (أي غريب عن المدينة وغير متحضّر)، و"نصحه" أستاذه أحمد نورالدين بالسّعي إلى طلب نقلته إلى صفاقس... فاغتاظ وعمل "بنصيحة"

أستاذه ولم ينه أسبوعه بسوسة حيث انتقل للتدريس بمدينة صفاقس "مسقط رأسه وعشيرته" كما يقول. ومدينة صفاقس هي منبع النضال النقابي الوطني على يد فرحات حشاد والحبيب عاشور وعبدالعزيز بوراوي وهي الرائدة في الحركة الكشفية وهي التي أحيت الحركة الوطنية بعد انتكاسة أفريل 1938... وهي "خصال" ينقلها لنا الراوي، بإسهاب، في مذكراته على لسان الزعيم الوطني الهادي نويرة، أصيل مدينة المنستير، في خطاب ألقاه أمام المناضلين الدستوريين بصفاقس.

لئن كان هذا التمشّي، الذي انتهجه حامد الزغل، يثير حفيظة البعض وخاصة أولئك الميّالين إلى التعميم عند الحديث عن أيّ ظاهرة، فإنّ البحث التاريخي يتغذّى ويتطوّر ويحقّق الثراء بتوفّر رصيد مونوغرافي متعدّد ومتنوّع لإثراء الرّؤية التاريخية وتوفير إمكانات المقارنة وتجريب مجمل الافتراضات، فللحقيقة التاريخية وجوه متعدّدة ولا نصل إلى العام إلاّ انطلاقا من الخاص... فالرّسم الذي أنجزه الزغل للمشهد المعماري لمدينة صفاقس في زمنه من ساحات وأسواق وأزقة وبيوت وميناء ومقاه ومواخير... تجعلنا نقترب أكثر من الواقع الاجتماعي والسياسي التونسي في أربعينات القرن العشرين وخمسيناته، بإضافة حديث الزغل عن نشاط الحزب الدستوري والكشافة والنقابات العمالية واتحاد الطلبة... خاصة وقد التزم المؤلف منهجية لم نألفها لدى كل الذين نشروا مذكراتهم بتونس، فقد اعتمد أسلوبا طريفا يصل به إلى القارئ المختص كما القارئ العادي حيث كانت مذكراته مراوحة بين أسلوب المؤرّخ، في اعتماده على الأرشيف الرّسمي (أرشيف الإقامة العامّة الفرنسية بتونس، أرشيف جيش البر الفرنسي، وزارة الخارجية الفرنسية، أرشيف الحكومة التونسية) والشهادات المدوّنة والشفويّة مع ما يتطلّبه ذلك من بذل الجهد في البحث والتحقيق والمقارنة، وبين أسلوب السيرة الروائية الذي جرّبه بعض الروائيين العرب وغير العرب عندما نشروا أعمالا هي مزيج بين العمل الروائي في بنائها وشخوصها وحبكتها وبين السيرة الذاتية في الاعترافات التي تضمّنتها.

يبقى أسلوب حامد الزغل من أهم ما ميّز روايته للتاريخ في كتابه "**جيل الثورة**" الذي كدت أسمّيه "**كليلة ودمنة 2**" لأنّي اعتقد أن خيال القارئ سيحلّق بعيدا وهو يقرأ ما كتبه حامد الزغل عن "الثّعلب" و"التيس" و"النمر"... ودورهم في الحركة الكشفية التونسية والحركة الطلابية والحركة الوطنية عموما...